

ماهية التدفق الإعلامي الدولي و تطورات خطاباته*

عبد الله ثاني قدور

قسم علوم الإعلام و الاتصال
جامعة وهران - الجزائر

kaddourtani@yahoo.fr, dr.abdallahtani@gmail.com

المخلص. إن البلدان الغربية الصناعية العظمى وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية؛ وفور انتهاء الحرب العالمية الثانية ومراعاة لأهمية هذه المشكلة الاتصالية الإعلامية؛ أخذت تتنافس على تطوير تكنولوجيا الاتصال والإعلام حتى يتسنى لها بواسطتها اقتحام مجال الاتصال الدولي والذي عبره تروج أيديولوجيتها المكرسة لخدمة أهدافها الاستراتيجية. وفعلا لقد تمكنت هذه الدول العظمى، بفضل تقدم تكنولوجيا الاتصال والإعلام الدولية، من أن تمتد إلى كيان البنى الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات الدولية، ومن خلالها تمكنت من انتهاك سيادة الدول الضعيفة وضرب سياستها الإنمائية؛ وتعدت هذا بالمرس بثقافتها وهوياتها الوطنية. وحاولت منظمة الأمم المتحدة للتربية و العلوم و الثقافة (اليونسكو)، منذ سبعينات القرن المنصرم، بتدخلاتها المختلفة إيجاد حل للتخفيف من حدة وطأة الاختلال الإعلامي للدول الغربية العظمى على البلدان الضعيفة ولم تفلح. وبمرور الأيام اتسعت الهوة الاتصالية الإعلامية ورجحت كفة التفوق فيها للدول الغربية الصناعية الكبرى المالكة لتكنولوجيا الاتصال والإعلام الدولية على حساب البلدان المفتقرة إليها. وعلى الرغم من كون دول العالم النامي (الدول الصناعية الجديدة) استفادت من مزايا ثورة الاتصال والإعلام الحديثة، إلا أنها لم تتعد فيها حدود الاستفادة من مخرجاتها.

Abstract. The major industrialized countries, particularly the United States of America, entered immediately after the Second World War in the competition for the development of information and communication technologies, so that they can break into the field of international communication and promote their ideology dedicated to the service of their strategic objectives. Due to the development of communication technologies and international media, this country has achieved the violation of the weak states sovereignty and the destabilization of their development policies, and the assignment of their cultures and national identities. The United Nations for Education, Science and Culture (UNESCO) has attempted through its various interventions since the seventies of the last century, to reduce the impact of this imbalance media, but in vain. This has increased over the years in favor of major industrialized countries hold the monopoly on information and communication technologies at the international level. Some developing countries (newly industrialized countries) have managed to take advantage of the modern media revolution, but these benefits do not exceed its outputs use.

الكلمات المفتاحية: تدفق وسائل الإعلام الدولية، تكنولوجيا المعلومات والاتصال، الخطابات، الهيمنة الأيديولوجية، التأثير الاستراتيجي، مداخل المعلومات، التدفق الحر للمعلومات.

Keywords: International flow of media, Information and Communication Technologies, Speech, Ideological domination, Strategic influence, Information Inputs, Free Flow of information.

* International flow of media and the evolution of his speech

مقدمة

تشير أدبيات الاتصال و الاعلام آن مفهوم التدفق الإعلامي الدولي آخذ في الظهور في أربعينيات القرن الماضي للدلالة على سيلان المعلومات من دول المركز باتجاه دول الهامش¹. ولهذا السبب يعتبره أخصائيو الإعلام مرحلة من مراحل تطور الإعلام الدولي. عرفته مجموعة من الباحثين المدخل في علم الاتصال Introduction to mass comm بأنه "أي اتصال يتم عبر وسيلة جماهيرية تتجاوز الحدود الوطنية"².

تحديد "آل هستر"

اخترنا تعريف "آل هستر" نظرا لأهمية بنائيته المتركرة على دور هذا المفهوم في تنظيم وتبادل المعلومات بين الدول في سياق العلاقات الدولية. ووفقا لهذه الرؤية فان أهميته تنعكس في الاعتبارات الموجزة من طرفنا في الآتي:

أولا الاعتبار الاجتماعي: يرى "آل هستر" أن البشر قد نظموا أنفسهم في نظم وطنية-National Systems- ذات هويات متميزة تكون عناصر النظام الدولي -World Systems- ولا تستطيع النظم الوطنية أن تعيش بمعزل عن بعضها البعض. فالتفاعل المتصل في الأنشطة الدولية يجعل الدول ذاتها في اتصال مستمر ومتواصل مع بعضها البعض وقد يكون للأحداث الخارجية عن النظام أكبر الأثر عليه³.

ثانيا اعتبار الأمن الداخلي: النظم الوطنية مثلها مثل باقي الكائنات الحية لديها استعداد لتلقي المعلومات المتعلقة بالأحداث الخارجية؛ ومراقبة بيئتها الخارجية من خلال تبادل المعلومات لحماية نفسها من الأخطار الخارجية المحدقة بها.

النتيجة: تعطي المدخلات الإعلامية -Information Inputs- الناتجة عن مراقبة واستقصاء البيئة الخارجية لموجهي وقادة النظم الوطنية المعلومات أو المعرفة التي يبنون عليها الاستجابات لحفظ وصيانة نظمهم الوطنية

¹ هذا التصنيف اعتمده سمير أمين في كتابه النمو اللامتكافي في ثمانيات القرن الماضي واستمر اعتماده كما أوضحه دماكفيل -ل- طوماس في مؤلفه: الاتصال الدولي؛ إلى جانب تقسيمات عديدة لدول العالم: دول شمال-جنوب-شرق-غرب-الدول النامية، الدول المتقدمة، الرأسمالية، الاشتراكية. الدول الصناعية ودول العالم الثالث، وهناك أيضا تصنيف الدول المركزية والهامشية و شبه الهامشية.

² بروفيسور علي محمد سمو : الاتصال الدولي و التكنولوجيا الحديثة - دار القومية العربية للثقافة و النشر 2002 - ص 101

³ فكرة موجزة باقتباس عن د. راسم محمد الجمال : دراسات في الاعلام الدولي : دار الشروق للنشر/ و التوزيع و الطباعة جدة 1985 ص 19.

(فالمعلومات والبيانات هي بمثابة المادة الخام التي يتعين انتقاؤها وبناء الاستجابة عليها)، بمعنى "أن المعلومات المتبادلة بين النظم الوطنية تستخدم لحفظ بقاء النظم ولوضع السياسات الخارجية لحكوماتها".⁴

قنوات الاتصال الدولي: استنادا إلى تعريف "آل هستر"؛ فإن الاتصال الدولي وحتى يمد النظم الدولية بالمعلومات اللازمة لخلق تصورات واضحة فيما بينها؛ يعتمد في هذا على عدة قنوات أو أجهزة تنحصر في: "الرسائل الدبلوماسية والمعلومات التي توفرها عمليات التجسس والاتصال الشفوي بين المسافرين والخطابات والبرقيات التي ترسل من خلال الصفقات الدولية؛ والبرامج الإذاعية والتلفزيونية التي تبث عبر الأقمار الصناعية والكتب والمطبوعات المتخصصة والمجلات والصحف والمواد الإعلامية التي تنشرها وكالات الأنباء والمراسلين الأجانب".⁵

1. مبدأ التدفق الحر للأخبار

1.1. تاريخية المفهوم

بدأ بالتسمية فأصلها أمريكي "Free Flow of Information"؛ أما تاريخ ظهورها فترجعه التوثيقات الإعلامية إلى منتصف أربعينيات القرن الماضي ويستدل الباحثون على هذا التاريخ بالنظر إلى استشرافية الولايات المتحدة الأمريكية التي استهلتها حالما كانت الحرب العالمية الثانية توشك على النهاية؛ كان اهتمام أرفع مستويات في اتخاذ القرار يتركز فيها على الحقبة القادمة. لقد اتضح هذا في سنة 1943 أن الولايات المتحدة الأمريكية خرجت من النزاع دون أن تتضرر ماديًا فضلًا عن إمكانية سيطرتها اقتصاديًا على العالم.⁶

2.1. الإسهام الأمريكي في إقامة المبدأ الجديد

انطلاقًا من فكرة المبدأ الاتصالي الجديد، التي نادى به الولايات المتحدة والمتمثلة في: "لا ينبغي أن تحول أية حواجز دون تداول المعلومات بين الأمم".⁷ يتضح مضمون الخطاب الأمريكي المستهدف توسيع هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم. وفعلاً؛ فالذي حدث فالولايات المتحدة الأمريكية وفور انتهاء الحرب العالمية الثانية انطلقت بها حركة الرأسمالية نحو المرحلة الاقتصادية الجديدة التي تجسدت في رفع مستوى الاستغلال والاستثمار والتحكم بالمواد الاستهلاكية وإدارة عمليات التنافس الداخلية بين دوائر الرأسمالية وتوظيف كل ذلك في مواجهة المعسكر الاشتراكي (الاتحاد السوفياتي سابقاً والكتلة الشرقية الأوروبية)؛ تلك التي نظر لمشروعيتها "ترومان" على المستوى السياسي سنة 1947 أو مشروع "مارشال" على المستوى الاقتصادي. وفي

⁴ فكرة موجزة باقتباس عن د. راسم محمد الجمال : دراسات في الاعلام الدولي : دار الشروق للنشر ط 1 / و التوزيع و الطباعة جدة 1985 ص 19.

⁵ د.راسم محمد جمال: دراسات في الإعلام الدولي – مرجع سابق ص 10

⁶ هيرت – شيللر: الاتصال والهيمنة الثقافية، ترجمة د.وجيه سمعان عبد المسيح المطبعة المصرية العامة للكتاب 1993 ص 37.

⁷ هيرت – شيللر: الاتصال والهيمنة الثقافية، ترجمة د.وجيه سمعان عبد المسيح مرجع سابق ص 37.

ظل هذا الصراع الجديد جرى التركيز أساسا على إدخال الإعلام كعنصر أساسي في استراتيجية الصراع في الساحة الدولية.⁸

نجد الكونغرس الأمريكي المتكون من الحزبين الديمقراطي والجمهوري في تضامنها مع الجمعية الأمريكية لمحري الصحف ذات النفوذ القوي في رغبتها المتمثلة (في حرية المعلومات على نطاق العالم ونقلها بلا قيد عبر العالم كله) أصدر في سبتمبر 1944 (قرارا أعرب فيه عن الحق في تبادل المعلومات على الصعيد العالمي عن طريق وكالات جمع الأنباء وتوزيعها فردية ومشتركة وبأية وسيلة دون تمييز بصدد المصدر أو التوزيع أو الأثمان أو النفقات؛ ويحسن حماية هذا الحق بالاتفاق الدولي)⁹ ومنها الجمعية "الأسوشيتدبرس" و"اليوناييتدبرس أنترنسيونال"؛ وقبل انتهاء الحرب العالمية الثانية قامت بحملة دعائية تتكون من وفد ممثل لها (يحمل بصفة شخصية رسالة الصحافة الحرة الدولية إلى كل عاصمة صديقة من دول العالم).... وما إن أوشكت الحرب العالمية الثانية على الانتهاء؛ حتى تحركت الآلة الدبلوماسية الأمريكية ووفقت في إقناع نصف الكرة الغربية بالمزايا التي ينطبق عليها (التداول الحر) وتحول الاهتمام بعد نهاية الحرب إلى بقية العالم)¹⁰.

وتجدر الإشارة بأن الولايات المتحدة استندت في إقامة مبدأ التدفق الحر للأنباء على السيولوجيا الوظيفية لوسائل الإعلام التي من خلال إقرارها بداية 1953 بأهمية هذا الرهان فإنها أسست بذلك حقل الدراسات أسمته رسميا "الاتصال الدولي" ويلاحظ الدارسون أن الدراسات المترتبة عن هذا الحقل الدراسي الجديد أنها طغت عليها المانوية؛ إذ أن أعضائها من الرواد هم باحثون مارسوا من قبل كأخصائين في الحرب النفسية خلال الحرب العالمية الثانية لدى مكتب إستراتيجية الخدمة (OSS) ومكتب استعلامات الحرب (O.W.I). البعض منهم عاودوا الخدمة كمستشارين دائمين خلال حرب كوريا (1950-1953) كالمؤسس المستقبلي للمعهد الشهير للاتصال والبحث التابع لجامعة "ساند فورد" و "لبرشرام" المؤلف بالتعاون سنة 1951 لكتاب معنون "الحرر يستولون على المدينة" - [The Reds Take The City] حول مكانة العمليات النفسية في الاستيلاء على "سيول" من طرف الجيوش "الشيوعية" كما وتجدر الإشارة إلى المعسكر الشرقي المتزعم من طرف الإتحاد السوفياتي فهو الآخر ركز على مساعي بلورة مفهوم التدفق الحر للأنباء، اتخذ موقفا وقائيا راعيا فيه إبعاد مواطنيه عن وسائل الإعلام الغربية مع إخفائه مصالح أمنه الداخلية تحت شعارات "السيادة الوطنية" وغيرها من التسميات الإيديولوجية المعادية للمعسكر الرأسمالي "الاعتداء الإيديولوجي" أو "وسائل الدعاية البرجوازية"¹¹.

⁸ هيربرت - شيللر: الاتصال والهيمنة الثقافية - ترجمة دوجيه سمعان عبد المسيح مرجع سابق ص 43.

⁹ هيربرت - شيللر: الاتصال والهيمنة الثقافية - ترجمة دوجيه سمعان عبد المسيح مرجع سابق ص 44.

¹⁰ هيربرت - شيللر: الاتصال والهيمنة الثقافية - ترجمة دوجيه سمعان عبد المسيح مرجع سابق ص 45.

¹¹ Armand Mattelart : La mondialisation de la communication – collection que sais-je ? 33^{ème} édition presses Universitaires Paris 1996 p:55, p:56

3.1. تنافس القطبين على الاتصال الدولي

وإن كلتا القوتين العظمتين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي وقبل أن تتصارعا إيديولوجيا سنة 1947؛ كانتا قد أسهمتا في تطوير البنية الاتصالية الدولية، أمريكا وتحديدا سنة 1942، استولت على تسيير شركات البث الإذاعي الخاصة وتجهزت بإذاعة رسمية - صوت أمريكا- أما في مجال "البروباندا" الموجهة للخارج فأسندتها لهيئتين حكوميتين : مكتب أخبار الحرب (O.W.I) المكلف بالدعاية الغير مقنعة؛ ومكتب الخدمة الاستراتيجية (O.S.S) المؤهل في مادة العمليات السرية. وعلى عكس الحرب الأولى أين استثمر صحافيون وكتاب؛ فإن هذه المؤسسات الجديدة وظفت أخصائها من بين مهني وكالات الإشهار والعلاقات العامة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس و أنثروبولوجي الجامعات. كما أن معظم رواد السيسولوجيا الوظيفية لوسائل الاتصال تدرّبوا على حقائق دولية¹².

وكانت البرامج التي تبث عبر هذه المحطات تحمل شعار صوت أمريكا "The Voice of America"؛ وتقوم بإنتاجها NBC، CBS؛ بموجب عقد موقع بينهما وبين الحكومة.

وفي ربيع 1943 كان هنالك حوالي واحد وعشرون جهاز إرسال على الموجة القصيرة لنقل حوالي 2.700 ألفين وسبعمائة برنامج أسبوعي بإحدى وعشرون لغة¹³. "وبعد نهاية الحرب تحول مكتب الخدمة الإستراتيجية (O.S.S) إلى الوكالة المركزية للاستعلامات (C.I.A)؛ بينما مكتب أخبار الحرب (O.W.I) تحول إلى المكتب الدولي للإعلام ليصبح بدوره وكالة الإعلام للولايات المتحدة (U.S.I.A) سنة 1953¹⁴" و"التي تم توقيف تمويلها ونقلت اعتماداتها إلى قطاعات أخرى ولكن الخوف من الخطر الشيوعي أدى إلى الإبقاء على "صوت أمريكا"؛ وتم تحويلها سنة 1950 من نيويورك إلى واشنطن على أن تحظى بعناية تتناسب والدور المواجهي الدعائي لها. وفعلا وفي فترة انتقالها إلى واشنطن تم تزويدها بإضافة إذاعتين سريتين لها: راديو أوربا "Radio Free Europe" الذي يبث نحو البلدان الأوروبية الشرقية؛ وراديو ليبرتي "Radio Liberty" الذي يبث نحو مستمعي الاتحاد السوفياتي وكلتا الإذاعتين ومنذ نشأتهما تم تمويلهما من طرف وكالة المخابرات المركزية (C.I.A) وعلى عكس إذاعة صوت أمريكا المتكون صحافيوها من أمريكيين فإن هذين الإذاعتين تداران بواسطة صحفيين من مهاجري المعسكر الاشتراكي¹⁵.

أما الاتحاد الاشتراكي السوفياتي سابقا فدوره تميز في مجال الاتصال الدولي بتحقيق السبق كونه ركز على الراديو الدولي في الترويج للشيوعية: التي قامت على أنقاض نظام إمبراطوري وذلك سنة 1929؛ وهذا من خلال توجيهه لرسائل نحو دول معينة تقع إلى جواره، ثم توسع في مجال إدخال اللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية

¹² Armand Mattelart : la modélisation de la communication op cit p55, p:56

¹³ البروفيسور علي شمو: الاتصال الدولي مرجع سابق ص 129

¹⁴ Armand Mattelart : la modélisation de la communication op cit p 54

¹⁵ Armand Mattelart : la modélisation de la communication op cit p 54

والإسبانية والإيطالية والسويدية والتشيكية والتركية والمجرية والبرتغالية واستطاع في وقت وجيز أن يحدث تغييرات اجتماعية في الجمهور المستهدف برسائله الإذاعية¹⁶.

صفة عامة فإن الراديو الدولي السوفياتي تماشى والتطورات السياسية التي حدثت في أوروبا ففي فترة الثلاثينات كان الاهتمام منصبا على الصراع الأوروبي والتي أوجت مسالكة ألمانيا هتلر ثم جاءت فترة الحرب العالمية الثانية، واتحد الجميع ضد هتلر وكانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في معسكر واحد ولكن بعد الحرب بدأ التوتر يسود بين الطرفين واشتدت المنافسة على زعامة العالم وكان ذلك إيذانا لتصادم قوتين أعظم والسلاح الوحيد الذي يمكن أن يعتمد ويستعين به كل واحد من المنافسين على المعركة الجديدة هو سلاح الكلمة الراديو الدولي. ففي 1970 أسس راديو موسكو كمثل على ذلك، و كان يبث باتجاه إفريقيا مائتين وخمس وثلاثين ساعة أسبوعيا بواسطة خمسة عشرة لغة مقابل مائة وثلاثين ساعة بأربع لغات كانت تبثها إذاعة صوت أمريكا؛ وهذا مما يدل على حدة التنافس بين المعسكرين فيمن سيتربع على هيمنة العالم مستقبلا. الأمر الذي حفز الإتحاد السوفياتي على مضاعفة بث البرامج الإذاعية الموجهة قصد الإيقاع بالإيديولوجيا الأمريكية الليبرالية وذلك من خلال رغبته في المزيد من استقطاب الدول الإفريقية والنامية في صف أيديولوجيته.

2. النظام الإعلامي الدولي الجديد

1.2. تمهيد

يجد الباحث الموضوعي نفسه أمام اقترابه من النظام الإعلامي الجديد؛ في حيرة أمام التفسيرات المقدمة بشأنه؛ إذ هي متعددة ومتباينة وبعضها "تسم بالتحيز الواضح لخدمة تفسيرات واتجاهات إيديولوجية معينة حفزت مزيدا من النقاش والجدل، في حين اتخذ بعضها الآخر موقف الهجوم العنيف على شكوى الدول النامية ومطالبها"¹⁷.

بدأ الاهتمام بهذا المفهوم الجديد؛ وما ترتب عنه من انعكاسات على الدول الهامش رسميا سنة 1973؛ في مؤتمر قمة دول عدم الانحياز الذي انعقد بالجزائر وهو أول اجتماع أثار فيه هذه الدول المشكلة بصورة محددة وعبرت بقوة عن اهتمامها المشترك بالمعلومات¹⁸. "ولم تجد هذه المطالبة استجابة إيجابية في الدول المتقدمة التي اتفقت على أنها تحد خطير لسياسة التدفق الحر للمعلومات، ثم سرعان ما تحولت إلى مواجهة عنيفة بين الدول المتقدمة والدول النامية و بين الباحثين ورجال الأعمال أنفسهم كل يدافع عن اتجاهات ومطالب العالم

¹⁶ ع. د. جيهان رشتي: الإعلام الولي - في مرجع علي شمو: الاتصال الدولي مرجع سابق ص 131.

¹⁷ د. راسم محمد الجمال : دراسات في الإعلام الدولي -مرجع سابق ص 20.

¹⁸ شون ماكبريد و آخرون: أصوات معددة و عالم واحد -الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1981 ص 99.

الذي ينتمي إليه؛ ولم تخل المواجهة من وجود علماء الاعلام في الغرب متعاطفين مع مطالب الدول النامية واستعدادها لمساعدتها في تنمية قدراتها الفنية والمهنية¹⁹.

2.2. المحتوى العام لوثيقة "اليونسكو"

منظمة اليونسكو ومن خلال الادارة الخاصة -الاتصال والثقافة- التي أقامتها خصيصا "لدراسة معظم المشاكل المتعلقة بالاتصال في المجتمعات المعاصرة"²⁰. الأعضاء الستة عشر للجنة الدولية " الممثلين بشكل كاف للجوانب الايديولوجية: السياسية، الاقتصادية، والجغرافية للعالم " الذين اختاروا مسبقا أن يتموقعوا حول رؤيا عريضة تاريخية وسياسية واجتماعية. فحص هؤلاء الأعضاء وبالأغلبية للوضع الراهن للنظام الاعلامي الدولي أفضى إلى الحكم عليه بالغير المقبول ويتطلب صياغة مبادئ كبرى موجهة من أجل إقامة نظام دولي جديد²¹. للإعلام والاتصال " أكثر عدلا وفاعلية" ويمثل أساسا في [...] تفاعلية أكثر في تبادل المعلومات أقل تبعية تجاه التيارات المهنية للاتصال وأقل توزيعا للرسائل الإعلامية من الأعلى نحو الأسفل؛ أكثر اكتفاء ذاتيا وهوية ثقافية (للدول المختلفة الوطنية والمحلية أكثر مزايا للإنسانية جمعاء".

3.2. ردود الأفعال تجاه وثيقة "اليونسكو"

مشروع إقامة نظام دولي للإعلام والاتصال جديد؛ الذي وضعته اليونسكو"، لم يسلم برغم كفاءة واضعيه وصدق طروحاته من انتقادات وانتقادات مضادة نظرا لما يثير من قضايا وما قد ينجم عنه من توضيحات. ولعل قضية التدفق الحر للمعلومات (أو مبدأ الاعلام العالمي) إحدى تلك القضايا التي فجرت النقاش داخل اليونسكو²².

بصفة عامة فان المبادئ السياسية للنظام الاعلامي الدولي التي أفضت إليها "اليونسكو" لقيت في إقرارها نوعين من ردود الفعل؛ الأول والممثل من طرف الولايات المتحدة الأمريكية وبعض البلدان الأوروبية تمسك بالرفض القاطع لمشروع هذا النظام إن كان سيكرس في نظرهم -الرقابة وإغلاق الحدود و إعاقه سريان الخبر، لأن ذلك من شأنه إذ يخنق الحقيقة ويمنع تداولها ويعرض حرية الاعلام والاتصال للخطر²³". وهو ما حصل فلما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تغطي ربع ميزانية اليونسكو فقد قررت الانسحاب منها؛ وتبعته بريطانيا؛ بحجة أنها أصبحت واجهة للدعاية الشيوعية ليس إلا".

أما الموقف الثاني المتمثل من طرف الدول الاشتراكية سابقا، المتبني لمطالب دول العالم الثالث؛ مع بعض الاختلافات الطفيفة حول الحق في الاتصال مثلا الذي ترى فيه الدول الاشتراكية مطلبا سابقا لأوانه نظرا لعدم تبنيه لحد الآن من طرف المنظمات الدولية أو التحفظات المنطقية؛ كمطالبتها بضرورة ترسيخ بناء الهياكل

¹⁹ شون ماكبريد و آخرون: أصوات معددة و عالم واحد -نفس المرجع (2) ص (19) ص(20).

²⁰ Phillipe Breton /Serge Proulx : l'Explosion de la communication édits Casbah Alger 2000

²¹ Phillipe Breton /Serge Proulx : l'Explosion de la communication p:211

²² يحيى اليحياوي : في العولمة و التكنولوجيا و الثقافة / دار الطليعة للطباعة و النشر ط 1 -لبنان ص 59.

²³ يحيى اليحياوي : في العولمة و التكنولوجيا و الثقافة نفس المرجع ص 1 60.

الاعلامية و الاتصالية الوطنية لدول العالم الثالث (...) وهكذا بقي النظام الاعلامي الدولي منبرا دوليا يفتقر إلى الالزامية معلقا منذ 1986.

4.2. نقد 'هربرت شلير' لوثيقة ماكبريد

لقي تقرير ماكبريد المتعلق بالمبادئ السياسية للنظام الاعلامي الدولي الجديد نقدا من طرف الأستاذ "شلير" خاصة فيما يتعلق بعدم حيادية تكنولوجيا الاتصال واستعمالاتها وخاصة أن توجيهات البحث والتطوير التقني هي محدودة من طرف مجموعات المنافع الأكثر قوة ... واستحسن هذا الأخير تصريح هذه اللجنة الدولية عن إبدائها ملاحظة؛ أنه وفي أغلب الظروف فإن إدخال التقنيات الجديدة؛ يكون متأخرا أو مؤجلا بدون تحديد، و ذلك تفاديا لتبعية حتمية تجاه البلدان الصناعية التي تحتفظ في هذه الحالات بالاستحواد على المعرفة التقنية ومراقبة الوسائل الضرورية لتشغيل الوسائل (التجهيزات) الجديدة.

لقد اكتشف فيما بعد في خطابها نوع من الخلط الناجم عن انغلاق على ذاتيتها من خلال اعتمادها الحذر الأقصى من إدخال هذه التقنيات وفي ذات الوقت الاعتماد السريع لهذه الوسائل الجديدة من أجل إقامة البنيات الضرورية للنظام الاعلامي الجديد.

مثل هذه الصعوبة تنم.. يضيف شلير إلى هشاشة أعمال هذه اللجنة: فتحليلاتها تفتقر إلى التمييز والتحديد؛ وبهذا فهي أعمال غير قادرة على عكس ديناميكية التطور العالمي لتقنيات الإعلام والاتصال. إن هذا التطور هو محدد كلية بواسطة نظام تجاري رأسمالي يوجهه وفق منافع وأهداف الشركات المتخطية للحدود. وفي المقابل وحسب هذا الناقد شيللر دائما، فإن هذه الشركات تستلهم تطوير هذه الوسائل من المتطلبات النوعية لآلة العسكرية السياسية للقوى العظمى في العالم²⁴.

وتجدر الإشارة إلى أن نقد الأستاذ شيللر يندرج ضمن التوجه الذي رأى أن المبادئ السياسية للنظام الاعلامي الدولي؛ أنها لا تعدو أن تكون بمثابة مهدئات للتوجهات المتنامية الاقتصادية المهيمنة المتميزة بتسرب متعاضم في مختلف الأسواق المحلية للصناعات الثقافية الدولية (الترفيهية؛ الإعلامية والتربوية) المراقبة في أغلبيتها من طرف الشركات العابرة للقارات الأمريكية²⁵.

3. مدارس ونظريات التدفق الإعلامي الدولي

1.3. تمهيد

تعتبر مسألة مناقشة المدارس والنظريات التي أسهمت في بلورة مفهوم التدفق الثقافي عموما؛ والإعلامي خصوصا؛ إلى جانب ما ترتب عنها من انعكاسات تجلت في الأطروحات الفكرية - بمثابة امتداد للجدل القائم

²⁴ Philippe Breton / Serge Proulx: L'explosion de la communication op cit p 213

²⁵ Philippe Breton / Serge Proulx: L'explosion de la communication op cit p 213

خصوصا في مجال اختلال العلاقات بين دول المركز والهامش؛ والتي شكلت في سبعينات القرن المنصرم -القضية المركزية- في احتدام الجدل بينهما في المؤسسات والمحافل الدولية.

بتعبير أوجز فإن النظر في هذه المسألة يجعل الباحث أمام طرحين أساسين. وكلا الطرحين أنتج أعمالا وكتابات عدة أسهمت فيهما اختصاصات شتى بدءا بعلماء الاقتصاد؛ وانتقالا منه إلى مجال الفن والأدب وانتهاء بعلم الاجتماع وعلوم الإعلام والاتصال.

2.3. الطرح الأول: مدرسة التبعية الثقافية والتدفق الإعلامي المختل

ترتكز مدرسة التبعية الثقافية، أو ما تنعت كذلك بمدرسة الإمبريالية الثقافية والتي برز فيها المفكر الأمريكي: "هربرت شيلر"؛ واعتبر مؤسسا لها إلى جانب آخرين في أساسها النظري على اتجاه متميز يتجلى في رؤياها للإعلام الوافد (المواد الثقافية؛ البرامج التلفزيونية) على أنها تشكل خطرا على البلدان النامية ومصالحها الاقتصادية وهويتها الثقافية. وأن هذا الإعلام الوافد/العابر للقارات ما هو إلا جانب من مؤامرة عظمى حيكمت خيوطها من طرف الكارتلات والترسنت المتعددة الجنسيات للدول الصناعية الكبرى؛ والتي على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية؛ التي ومنذ وضع الحرب العالمية الثانية أوزارها تحاول دون كلل تقوية نفوذها والدفاع عن مصالحها الاقتصادية في مختلف أرجاء العالم؛ وبشتى الوسائل الممكنة من تحقيق هذا الهدف الكبير؛ والذي يستلزم لنيله التأثير وتخدير العقول والقيم وأنماط التفكير؛ عن طريق توظيف وسائل الاتصال الجماهيرية²⁶.

للإشارة أن تحليلات مدرسة التبعية أفادت في سبعينات القرن المنصرم دول الهامش خصوصا في فهم الاختلال الهيكلي في مجال الإعلام والاتصال؛ وذلك في الوقت الذي تأكدت لهذه الأخيرة عدم جدوى أطروحات التحديث (آرنر - ولبرشرام) في حل مشاكلها.

المحتوى التحليلي العام لهذه المدرسة الذي بلوره ("شيلر" - "تانياو فارييس" - "نورد ستريج") ينحصر أساسا في رؤياها للاختلال الهيكلي لتكنولوجيا الإعلام والاتصال المؤسسة على اعتبارها أن "الواقع الاقتصادي لأمريكا اللاتينية وبعض بلدان إفريقيا وآسيا؛ والذي تقابله البلدان المصنعة؛ والتي على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية تشكل فئة مهممة تعرف بالمركز أما الباقي فيمثلون الأطراف ويتسمون بالتخلف الاقتصادي والتبعية في هذا الإطار تعني عملية إقحام بعض المناطق في النظام الرأسمالي العالمي وما يترتب عنه من انعكاسات سلبية على الهياكل الأساسية لهذه البلدان على المستوى الاقتصادي والثقافي ... وما يميز هذه العلاقات بين المركز والأطراف هو التبادل اللامتكافئ بحيث أن الأطراف تتخصص في إنتاج المواد الخام في حين يحتكر المركز إنتاج المواد الصناعية ويسيطر على الثروة المالية ... وتعمل بلدان المركز بالطبع على أن تستمر هذه الأوضاع بكل الطرق وتستخدم وسائل الاتصال الجماهيرية والمواد الثقافية لتكرس هذه التبعية على المستوى الفكري والوجداني

²⁶ توفيق عبد الله يعقوب: تدفق البرامج التلفزيونية الأجنبية وقضايا الإنتاج المحلي / دراسة حالة دولة الإمارات العربية المتحدة في مجلة البحوث ع 22 سبتمبر 1988. المركز العربي لبحوث المستمعين والمشاهدين. اتحاد إذاعات الدول العربية العراق ص 78.

للأطراف التابعة ومن هنا يبرز مفهوم التبعية الثقافية²⁷ الذي حدده "شيللر" وحذر من انعكاساته. فهو يرى أن الاعلام الأمريكي ومن أجل تحقيق التبعية الثقافية فإن دوره يصبح كالمدرّب الفعّال للمستهلكين حول العالم. ذلك أن الدعايات ذات النمط الغربي ومواد الاعلام تدفع بالتطور العالمي لثقافة المستهلك وتقدم قيما غربية والتي تمسح من الهويات الوطنية²⁸.

يستشف من هذا التحليل أن الإعلام الأمريكي وبفضل قدرته على الوصول إلى أطراف العالم؛ فلقد أسهم في إنشاء هويات متخطية للحدود الوطنية تعرف تحت مفهوم "الأذواق الثقافية" فالذوق هو الذي يعمل عليه؛ وعلى توحيدته بغض النظر عن الحدود الجغرافية والوطنية والثقافية والوطنية، حتى تصبح أذواقا عالمية للاستهلاك وهو ما ينتج عنه مسميات موحدة لتنظيم حياة المستهلك كالشبلب العالمي أو (الثراء العالمي) و(الثقافة العالمية) و(الحضارة العالمية)²⁹.

3.3.3. الاسهامات النظرية والرؤية النقدية المتجددة لمدرسة التبعية الثقافية

أسهم أتباع هذه المدرسة بإنجاز عدة دراسات، تميز فيها الأستاذ "هربرت شيللر" من خلال نشره لعدة مؤلفات نذكر منها "وسائل الاتصال والامبراطورية الأمريكية"، "الاعلان والاعلام الدولي في البحوث الجارية حول العنف والسلام" و"المتلاعبون بالعقول" والاتصال والهيمنة الثقافية.

أول كتاب لهذا الناقد الأمريكي كان وسائل الاتصال الجماهيري والإمبراطورية الأمريكية "Mass Communication And American Empire" صدر له سنة 1969. فهو عبارة عن مقالات بدأت 1965؛ ويدشن لسلسلة طويلة انطلقت من البحث في التداخل للمركب العسكري -الصناعي و صناعة الاتصال وانتهت بالفضح الواضح للفضاء العمومي في الولايات المتحدة الأمريكية. وقبله قام "طوماس قيباك" أستاذ بالجامعة "إلينيوي" بنشر كتاب حول: الصناعة العالمية للفيلم "The International Film Industry" والذي أصبح مؤلفا تقليديا لتحليل استراتيجيات النفوذ لكبريات مؤسسة السينماوغرافية الأمريكية في الأسواق الأوروبية منذ 1945³⁰.

أما ما قام به "ويلس" فتمثل في دراسة "تأثير التلفزيون الأمريكي في جنوب القارة الأمريكية مبررا أن هذا الحضور يأخذ أشكالا عديدة منها تصدير البرامج التلفزيونية والملكية المباشرة لوسائل الإعلام وخاصة محطات

²⁷ توفيق عبد الله يعقوب : تدفق البرامج التلفزيونية الأجنبية و قضايا الإنتاج المحلي / مرجع سابق ص 78 ص 79.

²⁸ د.غسان منير حمزة سنو/علي أحمد الطراح : الهويات الوطنية و المجتمع العالمي والإعلام -دار النهضة ط 1 بيروت 2002 ص 150.

²⁹ د.غسان منير حمزة سنو/علي أحمد الطراح : الهويات الوطنية و المجتمع العالمي والإعلام -دار النهضة ط 1 بيروت 2002 ص 150.

³⁰ Armand et Michelle Mattelart : Histoire des Théories de la Communication – opcit p 66.

التلفزيون في هذه البلدان واقتباس النمط التجاري في ملكية و إدارة محطات التلفزيون في بلدان العالم الثالث بكل ما في ذلك من سلبيات تؤثر على العملية التنموية وجعل هذه الأقطار سوقا مفتوحا لكل السلع والأفكار³¹.

كما قام "ستيوارت إيون" 1976 بنشر تاريخ الآلية الاشهارية؛ والذي أصبح من بين الدراسات النادرة حول أسس إيديولوجيا الاستهلاك مرتبطة ببعض من فكرة الديمقراطية.

كما انضم إلى هذا التيار النقدي عدة باحثين؛ ففي إنجلترا "بيتر كولدينغ" من جامعة "دي ليستر" الذي انتقد جذريا نظريات التحديث المطبقة في الاتصال و"جيرمي تونستال" الذي اثبت أن الأساس (matrice) التنظيمي لوسائل الاعلام في العالم هي عقارية أمريكية؛ بينما "ج.أ- بويدباريت" و "مكائيل بالمر" فتناولوا هيكلية كبريات وكالات الأنباء العالمية.

وفي شمال أوروبا برز "نورد ستيرنج" و"فارس" إذ قاما بدراسات حول التدفقات العالمية للبرامج التلفزيونية الأمريكية. وفي بلدان أوروبا وحول "كوروبرات فيلاج" و القيم الاجتماعية الثقافية للمركب الاتصالي -الصناعي نجد "هاملينك" 1977.

مسألة تدفقات الأخبار حفزت الأعمال النظرية للوسويولوجي النرويجي "جوهان فاقوف" 1971 حول أشكال الأمريكية الجديدة للوسويولوجيا الوظيفية للولايات المتحدة الأمريكية.؛ التي استهلكت نهائيا مع جيل الباحثين النقديين: "باسكاولي" 1963 "شمو كلر" 1974، "كبريلس" 1976 "بلتران" 1976 "بلتران و فوكس" 1980³².

عرفت المدرسة التبعية، خلال مسابرتها لتطور تكنولوجيا الاتصال والاعلام، تغيرات في أدوات نقدها للاختلال الحاصل في تدفق المعلومات بين دول المركز والهامش من عدة زوايا كان من بينها نظرية الاستعمار الالكتروني التي نتجت كرد فعل حسب توثيقات الإعلام والاتصال لظهور التوسع الامبراطوري أو العهد الرابع خلال فترة نهاية عقد الخمسينات وبداية عقد الستينات من قرن العشرين؛ والذي تجسد من خلال التحول ناحية الخدمات أو اقتصاد المعلومات في الغرب. وقد اعتمد اقتصاد المعلومات على وسائل الاتصال عن بعد وتكنولوجيا الكمبيوتر لنقل المعلومات. هذا الاتجاه كان يمثل تحديا للحدود الوطنية التقليدية والعوائق التكنولوجية التي تعوق عملية الاتصال³³.

وحسب تعريف طوماس.ل.ماكفایل؛ خبير الاتصال الكندي فإن الاستعمار الإلكتروني "يمثل علاقة الاستقلال التي أرادتها الدول الأقل نموا بالغرب حيث بنيت هذه العلاقة على استيراد برامج وأدوات الاتصال جنبا إلى جنب مع استخدام المهندسين والفنيين والقواعد اللازمة. وقد أدى هذا النوع من الاستيراد إلى ظهور قيم وعادات

³¹ أنظر: د. توفيق عبد الله يعقوب : تدفق البرامج التلفزيونية الأجنبية و قضايا الإنتاج المحلي في مجلة البحوث / مرجع سابق ص 80

³² Armand et Michelle Mattelart : Histoire des Théories de la Communication –opcit p 67.

³³ طوماس.ل.ماكفایل الإعلام الدولي: النظريات الاتجاهات - الملكية ترجمة د.حسيني محمد نصر.د.عبدالله الكندي - دار الكتاب الجامعي / الإمارات العربية المتحدة 2003 ص 38

وثقافات وتوقعات جديدة؛ تتعارض بدرجة كبيرة مع قيم الثقافات المحلية وعاداتها. ولقد تخوفت الدول الأقل نمواً من الاستعمار الإلكتروني أكثر من تخوفها من الاستعمار التجاري؛ ذلك أن هذا أخيراً كان دائماً يبحث عن العمالة الرخيصة بينما يبحث الاستعمار الإلكتروني ولازال عن التأثير في العقول. فالهدف الأساسي للاستعمار الإلكتروني هو التأثير في الاتجاهات والرغبات والاعتقادات وأنماط الحياة والاستهلاك. إذ أنه كلما تزايدت النظرة إلى سكان الدول الأقل نمواً من المنظور الاستهلاكي فقط أصبحت السيطرة على قيم وأنماط سلوكهم مطلباً مهماً للشركات متعددة الجنسيات.

4.3. الطرح الثاني: مدرسة التدفق الحر "التلاقح الثقافي"

يمثل أصحاب هذه المدرسة؛ توجهها مغايراً تماماً لنظرية التبعية الثقافية؛ وينفي أصحابها تماماً كل تأمر أو تنسيق مسبق بين الكارتيلات الاقتصادية الضخمة والمؤسسات الإعلامية والثقافية التي تروج للسلع الثقافية الغربية في مختلف أنحاء العالم.

ينظر أصحاب هذا الطرح إلى نشاط وسائل الإعلام؛ وما تنتجه من رسائل إعلامية ثقافية على أنها مجرد نشاط اقتصادي شبيه بالأنشطة الاقتصادية الأخرى حيث تباع وتشتري السلع الثقافية في سوق عالمي متنافس³⁴. بل وأبعد من هذا فإنهم يذهبون إلى أن زيادة إنتاج السلع الثقافية بنسبة معينة سيخفض سعرها لأن تكاليف إنتاج الوحدات الإضافية ضئيل جداً إذا قورن بالمبلغ الذي صرف في النسخة الأصلية. فزيادة الأرباح هو الهدف الرئيسي من وراء حرص البعض على انتشار المواد الثقافية الغربية ولا يخفي أية أغراض سياسية أو استراتيجية³⁵.

ويسترسل أصحاب هذا الطرح في الدفاع عن رأيهم وفق حجج اقتصادية يركزون فيها على العائد المادي من وراء عمليات التصدير التي ما فتئت تنحدر خلال السنوات الأخيرة؛ فبعدما كان يمثل 60% من أرباح كبار المنتجين والموزعين الأمريكيين تدنت النسبة إلى 25% في السبعينات والثمانينات وذلك بسبب ظهور منافسين جدد.

ثم إن بلدان العالم الثالث لا تمثل إلا سوقاً محدودة الإمكانيات من الناحية المادية إذ أنها لا تحتوي إلا على 25% من جمهور المشاهدين في العالم³⁶ كما وينظر الليبراليون؛ إلى مسألة التدفق اللامتناهي؛ على أنه ذو إيجابيات جمة من أهمها موارد للثقافات المحلية؛ وإخراجها من التقوقع؛ مرتكزين في هذا على النظرية الأنثروبولوجيا "الانتشار الثقافي" والتي كان "ماكلوهان" ذاته قد تأثر بها وهو ما جعله يؤكد على أن تقدم تكنولوجيا الإعلام يسهل نشوء وقيام وعي جديد؛ أي التعرف على روابط عامة تبلورت في هويات وطنية وامتخضية

³⁴ الصادق رايح: وسائل الإعلام والعولمة/في مجلة المستقبل العربي - مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ع/5 ص 23

³⁵ انظر: توفيق عبد الله يعقوب - مجلة البحوث/مرجع سابق ص 80

³⁶ انظر د.توفيق عبد الله يعقوب / مجلة البحوث - مرجع سابق ص 80 - ص 81

للحدود الوطنية. فالإعلام الاتصالي يقدم وعيا حول الأماكن البعيدة؛ والعالم الشاسعة وبالتالي يؤدي إلى ولادة وعي ثقافي ومعرفة ثقافية جديدة.³⁷

إن مثل هذه الرؤيا تبرر لدخول السلع الثقافية من دول المركز نحو دول الهامش؛ بل ويعتقد أصحابها أن بلدان الهامش وباحتكاكها مع المنتجات الثقافية الوافدة من بلدان المركز فإنها "ستتمكن في فترة لاحقة من الاعتماد على نفسها وبلورة إنتاج محلي خاص يمكن أن يصبح عنصرا مؤثرا في السوق التلفزيونية العالمية وذلك بعد اكتساب المهارات اللازمة".³⁸

وقصد البرهنة على هذا الأثر يلجأ الليبراليون إلى تقديم أمثلة نجاح دول مثل المكسيك والأرجنتين (أمريكا اللاتينية)؛ وجمهورية مصر العربية؛ التي استطاعت أن تفرض نفسها محليا وتدخل السوق العالمية.

بوجه أعم فالليبراليون ينظرون إلى "أن المواد الثقافية والثقافات عموما يجب أن تتنافس فيما بينها مثلها في ذلك مثل السلع التجارية العادية في الأسواق الحرة في أن تكون الغلبة للأصلح والأفضل. ويزعمون أيضا أن ما تقدمه وسائل الإعلام الأمريكية يعكس إلى أبعد الحدود الذوق العالمي؛ ولهذا من الطبيعي أن يكون الإقبال عليها شديدا".³⁹

ونظرا لهذه الأسباب فنظرية "الانتشار الثقافي" تصر على فتح الحدود وفسح المجال لدخول المواد الثقافية؛ إذ تعتبر رفضها مجرد رد فعل انفعالي ضد التحديث والإبقاء على الثقافة التقليدية وهذا ما أدى بمفكري هذا الطرح إلى الاستدلال بأن التلفزيون العالمي لم يؤدي إلى تعميم نماذج "دلاس" ثقافيا حول العالم. ولكن بالمقابل كان الحافز لظواهر ثقافية معقدة كما كان الحافز أيضا لإعادة تأكيد الهويات الثقافية والتمسك بها.

ولا يزال أصحاب هذا التوجه يواصلون تأكيداتهم على أن الانتشار الثقافي لا يؤثر في الثقافات المحلية (Guiberneau.M 1996) أشار إلى أن انتشار العلاقة التجارية لمطاعم (MC Donald's) حول العالم لم تؤد إلى تعميم النموذج الثقافي والاجتماعي لتلك المطاعم عالميا وعولميا (James.B 1995) إن الإعلانات في أوروبا الشرقية ما بعد الشيوعية كثيرا ما كانت محببة وملفتة للنظر؛ ولكن وسط الصعوبات الاقتصادية المستمرة تبقي الثقافات المحلية مخلصا لخصوصية مجتمعاتها والمميزات الخاصة لأيديولوجيات الاستهلاك المحلية وآثارها.⁴⁰

³⁷ غسان منبر حمزة سنو/دعلي أحمد الطراح - الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام - مرجع سابق ص 153

³⁸ انظر د.توفيق عبد الله يعقوب / مجلة البحوث - مرجع سابق ص 81

³⁹ انظر د.توفيق عبد الله يعقوب / مجلة البحوث - مرجع سابق ص 81

⁴⁰ ة سنو/دعلي أحمد الطراح - نفس المرجع السابق ص /153/

المراجع الببليوغرافية

- بروفسور علي محمد شمو : الاتصال الدولي و التكنولوجيا الحديثة – دار القومية العربية للثقافة و النشر 2002.
- فكرة موجزة باقتباس عن د. راسم محمد الجمال : دراسات في الاعلام الدولي : دار الشروق للنشر/ و التوزيع و الطباعة جدة 1985.
- فكرة موجزة باقتباس عن د. راسم محمد الجمال : دراسات في الاعلام الدولي : دار الشروق للنشر ط 1 / و التوزيع و الطباعة جدة 1985.
- هربرت – شيللر: الإتصال والهيمنة الثقافية، ترجمة د.وجيه سمعان عبد المسيح المطبعة المصرية العامة للكتاب 1993.
- شون ماكيريد و آخرون :أصوات معددة و عالم واحد –الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.الجزائر 1981.
- يحيى اليحياوي : في العولمة و التكنولوجيا و الثقافة / دار الطليعة للطباعة و النشر ط 1 –لبنان.
- توفيق عبد الله يعقوب: تدفق البرامج التلفزيونية الأجنبية وقضايا الإنتاج المحلي / دراسة حالة دولة الإمارات العربية المتحدة في مجلة البحوث ع 22 سبتمبر 1988. المركز العربي لبحوث المستمعين والمشاهدين. اتحاد إذاعات الدول العربية العراق
- د.غسان منير حمزة سنو/علي أحمد الطراح : الهويات الوطنية و المجتمع العالمي والإعلام –دار النهضة ط 1 بيروت 2002.
- طوماس ل.ماكفايل الإعلام الدولي: النظريات الاتجاهات . الملكية ترجمة د.حسيني محمد نصر/د.عبدالله الكندي . دار الكتاب الجامعي / الإمارات العربية المتحدة 2003.
- الصادق رابح: وسائل الإعلام والعولمة/في مجلة المستقبل العربي . مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان.

Armand Mattelart : La mondialisation de la communication – collection que sais je? 33^{ème} édition presses Universitaires Paris 1996 p:55, p:56

Phillipe Breton /Serge Proulx : l'Explosion de la communication édits Casbah Alger 2000